مزامير للنفس العربية !

للأستاذ عبد المنعم خلاف

تمهيد :

أستوحي روح مولى نفوسنا وسيد عقولنا وآخذنا إلى رب الحياة ومقدمنا إليه بسنته وحنيفيته السمحاء (محمد) ، ليملأ قلبي ويفيض على قلمي ويهديه ويسدده في وفائه له ولقوميته التي حملت أجل الأمثال العليا في الفكرة والفطرة والخلق والمعاملة

أستوحي هذا الروح الأكبر ، ويتعرف قلبي الصغير إلى قلبه الكبير ، كما يتعرف الجدول الضحضاح إلى النهر السراح ؛ وأستعينه في خدمة النفس العربية بالمساهمة في حملها على إدراك فضائلها وحاجة الإنسانية إليها .

وإنما أتوجه إليه إذ هو باعث روح أمته العجيبة وخلدها على مر الأيام وكر الأعوام ، وموحد شملها ، وفارض أمجادها على القلوب والعقول

أمر بإنشاء هذا المنبر السيد الأجل الأفضل أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الإمام ، كافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين أبو القاسم شاهنشاه عضد الله به الدين وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين وأدام قدرته وأعلا كلمته . وذلك في شهر ربيع الأول سنة خمس ميه . أثق بالله »

والخليفة الآمر الفاطمي تولى الخلافة من سنة ٤٩٥ إلى سنة ٥٢٤

وأما الكتابة التي على الكرسي فهي أعظم خطراً ودلالة على عناية الفاطميين ببناء المساجد في هذه البقعة :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أمر بعمل هذا الشمع والكراسي والجامع المبارك الذي بالدير الأعلا والثلاث مساجد التي فوق فاران والمسجد الذي تحت فاران الجديدة والمنارة التي بحضر الساحل ، الأمير الموفق المنتخب منير الدولة وفارسها أبو منصور أنوشتكين الآمري »

والآمري نسبة إلى الآمر بأحكام الله . فالكرسي والمنبر صنعا في زمان الخليفة الآمر

(للكلام صلة)

عبد الوهاب عزام

وأومن إيماناً لا يتزعزع أن أمته هذه لا ينقصها إلا الوحدة في القلوب أولاً كما توحدت على يديه حتى تعود فتنهض بجسمها العملاق الهائل فتستلم الشمس من المشرق لتسلمها إلى المغرب

صورة رمزية للتعريف
بريشة الأستاذ سعيد تحسين

وأستوحي المهد الأول الذي درجت فيه هذه الأمة العجوز وانبثق منه ينبوعها الأزلي ... ذلك المهد الناطق بالصمت ، العامر بالنجوم ، الحصين بالتجرد والتفرد ، المبني بالجبال ، المفروش بالرمال ، مهاد الأرواح ، ومجتلى الإلهية ، ومبعث النبوات ، ومركز المعمور ، وملتقى الشرق بالغرب ...

كما أستوحي بلادها الثانية التي فاضت عليها أمواجها ، وتلاحقت أرتالها ، ونشرت عليها سلطانها الروحي واللغوي ، وسطرت على أديمها تاريخها بعروشها وفتوح سيوفها وأقلامها

وحينما أستوحي كل أولئك أجد السماء تنطق والأرض تنطق وكل شيء يوحي ويلهم ويدفع القلم دفعاً إلى التسطير والتحرير لبعث هذه الأمة والتفاني في خدمتها والتفادي في إحياء مثلها الأعلى الذي رسمه الله في قلب أبيها محمد ، وملء أسماعها بأناشيد مجدها وترانيم وحدتها حتى تعود فتملأ الدنيا وتشغل الناس وتفتر

أشخاصها وكلماتها الصامتة والناطقة فى مجاهل الأرض ، كما تنتثر النجوم فى مجاهل السماء

غير أنى أبادر فأبرأ إلى الله من العصبية القوميـة الجاهلية وضيقها وسفاهتها على غيرها ، وإنما أرجو أن تقوم العربية كما قامت أول أمرها على يد أبيها محمد أداة تنظيف للبشرية وتوكيد لوحدتها ... ولذلك أبادر فأنبه إخواننا وأصدقاءنا من الجنسيات الإسلامية الأخرى إلى هذا حتى يستيقنوا أننا لا نريد مفاخرة ولا منافرة جنسـية دموية قائمة على زعم فروق جوهرية بين الأجناس والألوان ؛ وإنما هى دعوة للعرب — وهم مادة الإسلام الأولى وقوم القرآن — إلى الاعتداد والاستمساك بالمثل العليا التى اختار الله القومية العربيـة لحملها إلى الناس ، وبالصفات الطبيعية العربية العليا التى كانت سنداً لهذه المثل

وقد دعانى إلى اختيار هذا الزمان للبوح بهذه الأناشيد التى طالما ترنمت بها نفسى معانى مطلقة حرة غير مصبوبة بألفاظ ، أننى وجدت الأقدار تنزل فيه وتتلاحق بسرعة وتتولى تغيير مقدرات الأرض وأوضاعها النفسية والجغرافية ، ووجدت صراع القوميات والآراء والمعتقـدات والفلسفات فى رءوس الناس وقلوبهم لا يقل قسوة وعنفاً واحتداماً عن صراع القوى الحديدية العمياء النارية التى تأكل الأخضر واليابس وتحطم القائم والحصيد وبين هذين الصراعين يقف قوى العرب متفرق الرأى فى الحاضر مختلف التقدير للمستقبل حائرى الألبـاب لا يكادون يعرفون فى أى النواحى موضعهم ، ولا من أى الآفاق مطلع مستقبلهم . ولا يكادون يعرفون ما فى مصاحفهم ودساتيرهم من المثل العليا التى تستطيع أن تجمع أمم الأرض كلها على حدود العدالة والسـلامة الإجماعية متى وجدت قوماً يؤمنون بها ويحسنون ذلك الإيمان ، ويمثلونها خير تمثيل ويدعون إليها بأسلوب هذا العصر الذى يعتمد على براعة الاستلفات والإعلان

وذلك لأن قوى فقدوا « الأب » الواحد الذى يجب أن « يلدوه » فى كل جيل ليتكلم بلسانهم ويتبنى قضيتهم ويتولى حراسة ميراثهم القلبي والفكرى والمادى حتى لا تمحوه الغفلة أمام الأقدار التى لن تزال تغير أوضاع الناس ومقدرات الأمم ، ولا ترحم الضعيف الكسلان المتوانى فى حراسة حقه وأمجاده بالسيف والقلم ، ولا تقيم وزناً لمن لا يقيم وزناً لقوانين الطبيعة وسنن الله فيكتفى بالأمانى والأحلام وتزويق الكلام ويترك ما آمن الله به وأولو العلم وهو الوحدة والعدالة والعلم والعمل

قبل أن يوجد الأب الواحد العادل العالم العامل ، فيتولى بوحدة فكره وفنه وضع القضية العربية الوضع المحكم وتنسيق قواها التنسيق البديع ، ويتولى بعدله توزيع الاهتمام والشعور على كل بقعة فى الوطن العربى الأكبر ، ويتولى بعلمه الإحاطة بالدقيق والجليل من شئون أمته فى بطون وديانها وشعاب جبالها فى صحرائها وخضرائها ، فى حواضرها وبواديها ، من الخليج الفارسى إلى الأطلسى ، ويتولى بعمله جمع أيديها حتى تكون يداً واحدة ، تصفق بها فى مواثيقها وعهودها صفقة واحدة ، وتلوح بها لأعدائها قبضة واحدة وتضرب بها قيودها وأغلالها ضربة واحدة أقول إلى أن يوجد ذلك الأب لا أقل من أن ينشد لها القادرون على الإنشاد والبيان بزاميرهم وأبواق تهتف فى أرضها النائمة بنداء اليقظة والانبعاث فى فجر الحياة الجديدة التى لا بد فيها لطالبى المجد من التبكير للسبق فى المضمار

وإن قدر الله — لا قدر ا — فأفلت الحاضر الراهن من أيدى العرب من غير أن يجمعوا أمرهم ويخفّوا فى طريق الحياة مع الزمن الذى يجرى بالناس ، ويخضعوا أجسامهم وعقولهم لضرورات العلم والقوة والاتحاد وملاقاة الصعاب بجبهة متحدة ، فسوف تموت آمال وتحبط أعمال وتحدث أهوال !

ولست أعلم زمناً أصلح للسعى إلى تحقيق الجبهة العربيـة الواحدة ، وأدعى إلى الإيمان بها من هذا الزمن الذى تداس فيه الأمم الصغرى ، ولا يكون فيه لغير القوميات الـكبرى وزن ، أو اعتبار فى أى معيار . .

ولست أعلم كذلك قوماً لهم مثل أوطاننا المتصلة المـكونة من مجموعة نادرة فريدة من الوديان والسهول والجنات والأنهار ، ولهم مثل أعلى واحد فى العقيدة والتقاليد والأخلاق ، ولهم لغة واحدة يفرغ عليها التاريخ والدين جلالاً وسحراً ، ثم يتوانى قادتهم وزعماؤهم فى استغلال هذه الظروف والفرص هذا التوانى الذى وراءه التفكك وتبديد الميراث

ويشهد الله أننى لا أتمنى قيام القومية العربية للانتفاع فقط بما فيها من العزة لكل فرد ينتسب إليها ، ولا لما فيها من الخيلاء والكبرياء اللتين تصاحبان الغرور القومى لدى أكثر الأقوام ...

ولكننى أعنى قيامها للاعتزاز أولاً بمثلها الأعلى الذى رفعته ورفعت الحياة به أيام أن كان لها السلطان والصولجان ... ذلك المثل الذى لا يتحقق التوازن الدولى ، والعدل الطبيعى إلا به ، ولا يضع علاقات مودة ، ومعانى بر جديدة بين شعوب الأرض إلا هو . لأنه مثل أعلى يقوم على كلمتين من كلمات الله رب الناس جميعاً ، وجاعلهم صنوفاً ، وأنواعاً وأجناساً ، وألواناً كما يصنف البستانى أزهار البستان ... : على كلمة ناطقة تدور بها الألسنة وتستوحى منها الأفكار ، وهى القرآن ! وعلى كلمة صامتة مستخفية فيها أسرارها وأوتارها وأشواقها وأوطارها وهى القلب العربى !

وفى الكلمة الأولى اعتمد الله على بلاغة هذه الأمة وفصاحتها وصراحتها فى الكشف عن كل مخبوء فى الضمير وفى الشعور وفى الفكر وتسجيله بلغة موسيقية موجزة مبينة ، وإلقائه على الأسماع والأفهام آيات منزلة من حول العرش ...

وفيها يضع الله كل شىء فى الطبيعة فى موضعه أمام الفكر البشرى « إنا كل شىء خلقناه بقدر » « أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » فلا يجوز الاعتراض والثورة على نظام الكون ومحاولة تبديله « لا تبديل لخلق الله »

وفيها ينظر الله إلى أمم الأرض كأمة واحدة « يا أيها الرسلُ كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إنى بما تعملون عليم وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون »

وفيها يحطم الله الأصنام الحجرية والبشرية ويسحق « العجل الذهبى » وعبّاده ، ويكسر كل قيد يقيد النفس بالمادة ويجعلها تخلد إلى الأرض وتتخذ الأهواء آلهة وتشبع الشهوات السفلى وتعيش فى الأرض فى غفلة عن الجمال الأعلى ؛ فيخرج الإنسان بعد هذا كله طليقاً حراً قديس الروح نظيف الجسد متجرداً من كل شىء لله الذى أعطاه كل شىء ...

وفيها يعقد الله بينه وبين الإنسان صلة مبنية على منطق الفكر ومنطق الوجدان ، فما يقدره الله فى الطبيعة ويحترمه يقدره الإنسان ويحترمه ، وما يبغضه الله ويمقته يبغضه العقل الإنسانى ويزدريه ؛ فالعقل البشرى صورة مصغرة من العقل الأعلى الذى يدبر الكون ويحرسه ويمسكه أن يزول . ألم يقل : « ونفختُ فيه من روحى » « إنى جاعلٌ فى الأرض خليفةً » ؟

ويدهى بعد ذلك أن يصدر العربى من بين يدى القرآن الذى يضعه فى الحياة هذا الموضع الأكرم الأعلى ، وهو معتقد أنه قوة من قوى الله مستخلفة لحراسة الأرض وحراسة النفس والإنسانية من فتن الحياة وقوى الشر ونوازع الإثم ، وأن ينظر إلى الناس كما ينظر إليهم الله نظرة رحمة وغيرة على مصالحهم وسعى حثيث لها ، لا كما ينظر الملحدون إلى أنفسهم وإلى الناس نظرة ضياع وحيرة بين القوى العمياء ، ولا يعتقدون أن القوة المتسلطة على الكون تأبه لهم أو تقيم لهم وزناً ، فهم كذلك لا يقيمون لقوانينها فى الطبيعة وزناً ، وإنما يدخلون الحياة ويخرجون منها كما تدخل وتخرج السباع إن كانوا أقوياء ، أو كما تحيا وتموت الخراف البلهاء إن كانوا ضعفاء

ويدهى كذلك أن تكون هذه الصداقة المعقودة بين العربى ورب الطبيعة مبعث اعتزاز وقوة واعتصام بقوة الذى بنى السماء والأرض ، يتحول بها إلى قوة مندمجة فى قوى الكون التى فى يد الله . وينظر بها إلى ما فى السماء والأرض وكأنه ينظر إلى أشياء موضوعة مهيأة له فى دار أبيه ...

* * *

أما القلب العربى ، وهو الكلمة الصامتة ، ففيه حيثما كان وراثات مدخرة من بساطة الحياة فى الصحراء واتساعها وعزلة الفكر فيها عن المؤثرات الصناعية ، وإشراق النجوم عليها ، واحتكاك الفكر فيها بالسماء دائماً ، وانطلاق النفس من غير سدود وقيود ، واعتداد الإنسان فيها بنفسه ، واعتماده على قواه الذاتية ، وسبح الخيال وراء المجهولات والغيوب ، وتجرد الحياة فيها من الزينة الصناعية والتكليفات الوضعية التى لا تطلق النفس لدواعى الفطرة بل تجعل عليها ركاماً من قيود التقاليد

يضاف إلى هذه الوراثات الاستعداد الدائم لبذل الدم والمال فى سبيل الشرف وحسن الأحدوثة ، وعدم الارتباط بالأرض إلى درجة التضحية بالحرية والخضوع لسلطة مذلة واستبداد مُهْدِر لكرامات الإنسان وحرمات الحياة ...

وهذه صفات ترشح قومها لحمل دعوة كالدعوة الإسلامية التى تطلب الدم والمال للوصاية على كل حق فى الحياة . ولن تستطيع نفس مترفة معقدة الفكر بتعقد الحياة التى نشأت فيها ، معقدة النفس بتعقد التربية السياسية ذات الأوضاع والقوانين الكثيرة ، محبة للحياة حريصة عليها لما فيها من الترف والنعمة ، بعيدة عن الطبيعة لأنها عاشت سجينة بين الجدران أو مكبة

على عبادة الزراعة والصناعة ، مثقلة بالأموال والخيرات الكثيرة فليس لها فراغ للفكر فى الكون وربه . . . لن تستطيع هذه النفس أن تحمل ما تحمل النفس العربية من رسالة البساطة والمساواة والرجوع إلى قوانين الطبيعة والنظر إلى أوليات الحياة ومبادئها والتجرد من التعقيد وركام التقاليد

ومن أجل ذلك لم يصطف الله أمة من الأمم المتحضرة كالرومان والفرس لحمل رسالة الإسلام مع أنهما كانتا على علم كثير وحضارة عظيمة ، بل اصطفى العرب لتلك الرسالة ، رسالة الفطرة والبساطة ، لأنهم أقرب الناس فى حياتهم من مبادئ الحياة العامة التى تجعل الإنسان شيئاً من الطبيعة غير منفصل ولا معزول عنها بجو صناعى ، ولأنهم يكونون وهم الغالبون أسرع من المغلوبين إلى ما يحقق العدالة والمساواة ، إذ لا يشعرون بفرق كبير بين حياتهم فى الحكم وأبهته ، وبين حياتهم على قدم المساواة مع أقل الناس تكاليف

واعتقادى أن الرجل الأوربى أو « الرجل الأبيض » على العموم لا يمكن أن ينهض برسالة المساواة بين الناس ، لأنه يجد فى شكله جمالاً وفى قده اعتدالاً وفى عقله تركيباً ، وفى حياته على العموم زيادات لا يجدها عند سواه ... بل إن بعض أنواع الرجل الأبيض — وهم الجرمان — قد بدأوا فلسفة جديدة فى الفروق الجنسية لا يمكن مطلقاً أن تقوم معها عدالة أو مساواة حتى بين أنواع الرجل الأبيض نفسه ...

وقد يكون للبيض بعض العذر من ملاحظة الفروق الظاهرة بين بيئاتهم وبيئات الأجناس الملونة ، فلا يجدون أنفسهم تطاوعهم على تناسيها ، والنزول بين غيرهم من بنى البشر على قدم المساواة ، لأنهم أولاً معزولون من قديم الزمان عن الاتصال بالأجناس الملونة التى تسكن فى وسط الأرض وحوله ، فلا يعلمون جوهر نفوسهم ولأنهم ثانياً يعتدون بشكليات الحياة اعتداداً كبيراً ، ولذلك ملأوا حياتهم بها ؛ فلا يمكن مطلقاً أن يعتبروا الفرق بين الجلدة البيضاء والجلدة الصفراء والسوداء والحمراء ... وإنهم ليفرقون الفروق بين الإنسان والكلب ، فيحتضنون الكلاب ويقبلونها ويبكون رحمة لها ويعاملونها بالحسنى ، ولكنهم يأنفون من رؤية الرجل الملوّن ويهينونه ولا يرحمونه ولا يجتهدون فى رفع حياته وإنقاذه من وثنياته وخرافاته . مع أنهم فتحوا دياره بالقوة منذ أكثر من قرن ، وعندهم من وسائل إخضاعه للتعليم والتهذيب بالإحسان والقوة الشىء الكثير ... ولكنهم مشغولون فقط بالبحث عن الذهب الأصفر والذهب الأسود ... !

والذين شاهدوا الشريط السينمائى الذى عرض فى بعض دور السينما بالقاهرة منذ قريب عن حياة « لفنجستون » الكاشف الإنجليزى المشهور ، يدركون تماماً ما يرى إليه واضع هذا الفلم ومخرجه من نقد ، لإهمال التبعات الملقاة على عاتق الرجل الأبيض فى تحضير هذه البقايا من الإنسانية الباقية على وثنياتها وخرافاتها وانقطاعها عن حياة العلم والدين .

دع عنك المؤثرات الطبيعية والصناعية التى جعلت الرجل الأبيض يهمل فى واجباته نحو إخوانه من بنى البشر هذا الإهمال وتعال معى ننظر إلى نعم الله على القومية العربية حيث وضعها هذا الوضع الوسط العجيب بين أجناس الناس وبقاع الأرض ...

إن وضعها هكذا من الخليج الفارسى إلى المحيط الأطلسى وسطاً بين أمم الشرق والغرب والشمال والجنوب لتلتقى عندها الألوان والأجناس والدماء والأجواء والثقافات والحضارات والطباع والأمزجة ، فتأخذ قلوبها من جميع القلوب ، وعقولها من جميع العقول ، وأجسامها وألوانها من جميع الأجناس والألوان ، ثم يمتزج كل أولئك ويصهر فى طبيعتها المعتدلة ويخرج للناس بعد هذا ثقافة نفسية وسياسية يلتقى عليها الشرق والغرب لقاء يحطم القيود ويجتاز الحدود . لأن فيها من كل جنس رفداً ، ومن كل عقل مدداً ، ومن كل قطر وِرداً ...

فإذا خاطب الله برسالته الأخيرة وكلمته الخاتمة هذه الأمة التى فى مركز الأرض فإنما يخاطب البشرية جمعاء متمثلة فى هذا الجنس

وإذا خاطب العربى المتحضر أمم الشمال والغرب المتحضرة ، أخذوا عنه خطابه وعقلوه لأن فيه مسحة من بياضهم وثقافتهم ، ولأنه أقرب الأجناس إليهم وأكثرها اختلاطاً بهم

وإذا خاطب العربى المتبدى أمم الجنوب والشرق ، أخذوا عنه وعقلوا منه ، لأن فيه بساطتهم ومعارفهم ، ولأنه من أقرب الأجناس إليهم وأكثرها اختلاطاً بهم

وتلك نعمة عظمى حتم على العرب أن يتفطنوا لها ويبنوا جهادهم ورسالتهم عليها ويدركوا امتنان الله عليهم بها فى قوله : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس »

(القاهرة) عبد المنعم خلاف